التحدث إليك. لأن الإمبراطور يرتدي ثياباً من عين الطراز الذي أرتديه وسأكون وكأني أكلم رجلاً مثلي والأمر يختلف جداً بالنسبة الى قداستك ففيك أرى جلال الالوهية وهيبتها بسبب ثيابك الكهنوتية التي تضفي عليك هالة القداسة فضلاً عن مظهرك المهيب الموحي بالرهبة. وهو ماليس عند الإمبراطور" عند ذلك قال الپاپا:

– إنصرف على بركة الله يا بنڤنوتو. إنّك لداهية أريب. إرفع رأسنا وسيعود ذلك عليك بالخير العميم

هيأ الپاپا جوادين عربيين كانا من مقتنيات الپاپا كليمنت، لم يشاهد أفضل منهما في كلّ بلاد المسيحيّة. وأمر أمين سرّه (السيد دورانتي Messer Durante) أن يقودهما عبر اروقة القصر ثم يقدمهما هدية للإمبراطور، مشفوعة بخطبة قصيرة أعدّها له الپاپا. فسرنا معاً وعندما صرنا في حضرة الإمبراطور أدخل الجوادان وهما يجوسان خلال الممرّات بجلال وإتساقٍ رائعين فأثارا إعجاب الإمبراطور والحاضرين كافةً.

وعند هذا تقدم (دورانتي) مضطرباً ونطق بخطبته متعلثماً متردداً مرتجاً كأن لسانه ملتصق بحلقه بلهجة تمازجها رطانة بُرشية[٢٠٦] فكان مشهداً مخجلاً لم يسمع بمثله حتى أن الإمبراطور لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة قصيرة. في تلك الأثناء كنت قد رفعت الغطاء عن الكتاب. وعندما لاحظت الإمبراطور قد تحول بنظره اليّ بغاية الجلال واللطف تقدمت الى أمام وقلت:

– ياصاحب الجلالة الأقدس. إنّ أبانا الكليّ القداسة الپاپا يولص يبعث بكتاب "سيدتنا" هذا الى جلالتكم هديةً. إنه مستنسخ باليد. وقد حلاّه بالصور أعظم فنّان في مجال فنّه. وهذا الغلاف النفيس من الذهب المكّفت بالأحجار الكريمة لم يكمل بعد كما يراه جلالتك بسبب المرض الذي ألمّ بي. ولهذا فإن قداسته يقدمني لك مع الكتاب لأقوم بإنجازه بالقرب من شخص جلالتك. مع استعدادي للقيام. بكلّ ما تكلفني به من عمل. وسأبقى طول عمري رهن إشارتك وفي خدمتك.

فكان جواب الإمبراطور على هذا قوله:

– إني لمسرور بالكتاب وبك أنت. إلاّ اني أريدك أن تنتهي منه في روما. وبعد إكماله وإبلالك من المرض إلحق بي، وجئني به.

وأخذ بجاذبني أطراف الحديث منادياً أيايّ بإسمي المجردّ مما أثار دهشتي إذ أن اسمي لم يذكر في تلك المناسبة وأخبرني بأنه شاهد عروة زنّار الپاپا كليمنت بكلّ الصور العجيبة التي نقشتها فيه. وإمتد بنا الحديث على هذه الوتيرة حوالي نصف ساعة في شؤون فنيّة ومواضيع تتعلق به. ووجدت إني مضيت بعيداً في تحقيق النجاح المأمول فوقما توقعّت. فإنتهزت فرصة سكونٍ وإنقطاع حديثٍ وإنسحبت بعد أن إنحنيت له. وسُمع الإمبراطور يقول:

– اعطوا بنڤنوتو خمسمائة كراون في الحال.

فجاء الشخص الذي أنيط به دفع المبلغ وسأل: أين هو رسول الپاپا الذي كان يكلّم الأمبراطور؟ فبرز إليه (دورانتي) وسطا على الكراونات الخمسمائة. فأسرعت أشكو الأمر للپاپا فقال لا تبتئس

(٢٠٦) بنسبة الى Brescia وهي بلدة في شمال أيطاليا تقع بين ڤيرونا وميلان. وتبعد زهاء ٨٠ كيلومتراً شرقاً عن المدينة الأخيرة.ش

فإني أعرف كل ماوقع. وكم كان تصرّفك لائقاً في حديثك مع الإمبراطور. وأكدّ لي إني سأتسلّم حصتي من المبلغ.

عدتُ ألى دكاني وبدأت أشتغل بالخاتم الألماسي الذي كلفني به البابا وبعث اليّ بأربعة من الجواهريّة وهم أفضل من في روما، للمداولة معي بشأنها. ذلك لأن البابا كان قد أبلغ بأن الجواهريّ المدعوّ(ميليانو تارگيتوّ Miliano Targhetto) قد كفتّها في البندقية، وإنه أمهر جواهريّ في العالم. وإنه لما كانت الألماسة رقيقة بعض الشيء. فإن مثل هذا العمل الصعب فيها يحتاج الى تبادل رأي ومشاورة. كان إغتباطي عظيماً بزيارة هؤلاء الجواهرية الأربعة ومنهم ميلانيّ يدعى (گايوّ Gaio) وهو من أكبر الحيوانات في الدنيا إعتزازاً بنفسه، يعرف القليل ويدعى أنه يعرف الكثير جداً. وكان الآخرون في غاية التواضع، ومن أكفأ ماوجدت في مجال فنهم. بدء (گايوّ) هذا بالكلام قبل كلّ أحد فقال:

- بنڤنوتو! عليك بمركّب (ميليانو). بل أرفع له قبعتك. فإن تظليل الألماس أدقّ وأصعب ناحية في فن الجواهريّ. وميليانو هو أعظم جواهريّ عرفته الدنيا. وهذه أصعب ألماسة.

وكان جوابي أنّ مباراتي لمثل هذا الصانع الكامل ستكسبني المزيد من الشهرة والمجد. ثم التفتّ الى بقية الجواهرية وقلت:

- أنظروا، مركّب (ميليانو) في حوزتي لكنيّ سأحاول التفوق عليه بعمل مركّب من إختراعي فإن لم أنجح فسأستعمل مركب ميليانو.

فقال ذلك الحيوان (گايو):

- لوضعت محلولاً مثل هذا فسأكون على إستعداد لأرفع قبعتي له إحتراماً.

فأجبت:

- فلو حضّرت أفضل منه، فسيستحقّ منك إحتراماً مضاعفاً.

فأجاب أجل وهو كذلك. وبدأت أهيء مركّبي وراعيت الدقة والحذر (وسأقوم في الموضع المناسب بشرح كيفية التحضير). والحقيقة التي لاريب فيها أن هذه الألماسة كانت صعبةً للغاية، لم ألق في غيرها ما لقيت فيها من العنت لا قبلها ولا بعدها. وقد تم مزج مركبّ ميليانو بأدق ماتوصل إليه المفهوم العلميّ. على إني ماكنت لأخشى الفشل بسبب ثقتي الكبيرة في نفسي. وبالفعل وفّقت في عمل مركّب يتفوق على مركب ميليانو لا ان يضاهيه فحسب. بعدها باشرت في محاولة التفوق على مركبيّ نفسه فصنعته بطريقة أخرى حتى بلغت غاية ما أصبو إليه. بعد هذا دعوت الجواهريّة الأربعة وعاملت الألماسة بمركبّ (ميليانو) ثم أزلت الطلاء عنها بمسحها، وعدت فطليتها بمركبتي الأول ثم عرضتُها عليهم فتناولها رافاياللو دل مورو، وهو واحد من أخبرهم في الصنعة وقال لگايو:

- لقدّ بذّ بنڤنوتو صاحبك ميليانو.

وتناول (گايو) الألماسة وهو متردد في تصديق ذلك ثم قال:

- بنڤنوتو! إن قيمة هذه الألماسة إرتفعت بمقدار الفيْ دوقية على ما كانت وهي مطلية بمركب ميليانو.

عندئذ أجبت:

- مادمت تفوقت على مجهود ميليانو. فلنر ان كنت أستطيع التفوق على نفسي.

ورجوتهم أن ينتظروني لحظةً، ثم أنسحبت الى قبةٍ صغيرة وهناك بعيداً عن الإنظار أعدت طلاء الألماسة وجئت بها إليهم. فهتف گايو:

- لم أر أعجب من هذا في كلّ حياتي! هذه الألماسة تسوى ثمانية عشر ألف كراون وكّنا قد قدرناها بأثني عشر ألفاً.

والتفت الثلاثة الآخرون الى (گايو) وقالوا:

- إن بنڤنوتو فخر صناعتنا. ومن حقّه علينا أن نرفع قبعاتنا له ولما أنجزه.

وقال (گايو):

- سأذهب الى الپاپا وأعلمه بهذا. وإني لأقترح أن ينال بنڤنوتو ألف كراون ذهبي لقاء تركيب الألماسة.

وأسرع الى الپاپا ووقصّ عليه الحكاية برمّتها، فكانت النتيجة أن الپاپا أرسل يستفسر عن إكمالي الخاتم ثلاث مرات في ذلك اليوم. وجئته به قبل الغروب بساعةٍ وكان مسموحاً لي بالإنصراف والدخول دون عائق، ولذلك رفعت سجف الباب بكلّ لطفٍ فشاهدت الپاپا مع مركيز (گواستو Guasto) وكان يحاول حمل قداسته على تنفيذ مطلبٍ وسمعت قداسته يجيبه:

- قلتُ لك كلاّ: فمن واجبي أن أكون محايداً لا أكثر ولا أقل.

وفيم أنا أهمّ بالعودة من حيث أتيتُ ناداني قداسته فتقدمت وبيدي الخاتم الجميل، فإنتحى بي جانباً وأرتد المركيز مبتعداً عنّا مسافة. قال الپاپا وهو يتفحص الخاتم:

- بنڤنوتو! باشر معي في حديث ودعه يبدو وكأنه في أمرٍ خطيرٍ ولاتتوقف قط حتى ترى الماركيز يترك الغرفة.

ثم أخذ يتمشّى ذهاباً وأياباً في الغرفة. وقد أستمرأتُ هذه الفكرة بالأحرى فضلاً عن إنها قد تكون ذات فائدة لي. فبدأت أشرح الطريقة التي إستخدمتها لتنظيف الألماسة ومضاعفة تأثيرها. وظلّ الماركيز واقفاً حيث هو متكئاً على سجادة حائطية مائلاً بثقله على رِجْلٍ تارة، ومنتقلاً به الى الرِّجل الثانية تارةً أخرى.

كان موضوع حديثي بدرجة من الأهمية بحيث إقتضى للاحاطة بجوانبه ثلاث ساعات على الأقلّ. وقد إغتبط به الپاپا وإنتعش حتى أنّه نسي كم كان منزعجاً في حديثه مع الماركيز، والماركيز مازال واقفاً وحشرت في حديثي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يمسّ صناعتنا وبعد أن واصلت الكلام زهاء الساعة، نفد صبر الماركيز وترك الغرفة منفعلاً. عند ذلك بدء الپاپا يجاملني ويحتفي بي وقال:

- صبراً عليّ يابنڤنوتو وستجد المكافأة التي تحظى بها قابلياتك في أكثر من الألف كراون التي أفتى (گاير) بأنك تستحقها .

وراح الپاپا يمتدحني أمام رجال الحاشية بعد إنصرافي. وكان بينهم (لاتينو جوڤينالي) الذي جئت الى ذكره قبلاً. وقد جعلته من عداد أعدائي إذ حاول جهد طاقته الحاق الأذى بي. ولما رأى اللهجة

الحماسية الودودة التي كان الپاپا يستخدمها في الحديث عنيّ، قال:

- لايشك أحدٌ قطّ في أن (بنڤنوتو) في نهاية الذكاء والكفاءة. ومع انه من الطبيعيّ جداً أن يميل المرء الى أهل بلده ويخصّهم بالودّ الزائد لكن عليه ان يكون حذراً فيما يقول عن الپاپاوات. ولقد أثر عن (بنڤنوتو) هذا قوله: إن شخصيّة الپاپا كليمنت الآسرة لاتدانيها أي شخصية في هذه الدنيا من الأمراء والملوك. وهو ذو مواهب خارقة وذكاء نادر إلاّ إنه سيّ الحظّ . أما عن قداستك فحديثه بعكس ذلك تماماً إذ يقول أن التاج الپاپوي لايدخل رأسك إلاّ بصعوبة فهو أضيق من أن يحشر. وإنك تبدو أقرب شبهاً الى شاخص من القش مكسوّ بالثياب. وليس عندك ماتزهو به وتعتزّ غير حسن حظّك.

كان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على الپاپا، لاسيّما والناطق بها يعرف كيف يلقيها بلهجةٍ مؤثرة مقنعة. وقد صدّقه الپاپا. الله يعلم أن مثل هذا القول لم يخطر ببالي فكيف بقوله؟ كان الپاپا يخشى على سمعته وإلاّ لأنزلَ بي ضربةً لاقيام لي بعدها. لكنه وهو الذكي الأريب تضاحك وتظاهر بعدم الإكتراث. إلاّ أنه أسرّها في نفسه وأنمى في أحشائه حقداً عظيماً لي يقصر عنه الوصف. وقد شعرت بهذا عندما لم أعد قادراً على مواجهته إلاّ بشق الأنفس بعد أن كنت أتردد إليه بكلّ حريّة وفي أي وقت شئتهُ.

لما كنت طويل التردد في البلاط الپاپوي، وخبرتي به تمتدّ الى سنوات عدة فقد خمنت بأن أحدهم قد سعى بي ودبرّ لي هذه الوقيعة. وبعد قيامي بتحرّيات دقيقة. إكتشفت كلّ شيء باستثناء إسم المفتري. ولو كنت عرفته في حينه لما مازج إنتقامي منه رحمة أو إقتصاد.

صرفت كلّ اهتمامي بإكمال غلاف الكتاب الصغير وبعد تمامه حملتُه الى الپاپا الذي لم ير مناصاً والحق يقال من كيل المديح لي جزافاً. وطلبتُ منه أن يرسلني معه كما وعد فأجاب إنه سيعمل المناسب، وأن دوري في القضية إنتهى ثم أصدر أمراً بأن يُزاد في أجري. ولقد حصلت عن الأعمال التي أقتضتني أكثر من شهرين في شغلٍ متواصل، على خمسمائة كراون. منها مائة وخمسون فقط أجرة تركيبي الألماسة. والبقية عن عملي في الكتاب الذي كان يسوى أكثر من ألف كراون بالتأكيد، لكثرة مانقشت فيه من زخرف وحشدت من الصور والانبتة وأغنيته بالحجر الكريم والطلاء بالميناء. على كلٍّ أخذت ما أمكنني الحصول عليه وصحّ عزمي على مغادرة روما. بعد هذا أرسل الپاپا الكتاب الى الإمبراطور مع حفيدة (سينور سفورزا Sforza)[٢٠٧] ولما قدم الهدية للإمبراطور أظهر هذا إمتنانه العظيم وسأله عني. وكان الفتى (سفورزا) قد لقّن مايقول: فأجاب أن السبب في اعاقتي هو مرضي. وقد نبئت بهذا فيما بعد.

في عين الوقت إتخذت كامل الأهبة للرحيل الى فرنسا مفضّلاً أن أذهب وحدي. وقد تبيّن لي تعذّر ذلك بسبب فتى كان عندي يدعى (أسكانيو Ascanio). كان في مقتبل الشباب وخير خادم متفانٍ

(٢٠٧) إبن بنت الپاپا پولس الثالث. صار في مابعد من مشاهير القادة العسكريين فخدم أولاً في جيوش الإمبراطور شارلكان. ثم في جيش فرنسا.

يحظى به المرء. كان يشتغل خلفةً عند صائغ إسپاني يدعي (فرانشسكو)، فتركه وجاءني يطلب عملاً فترددت في ضمّه اليَّ خوفاً من إغضاب سيده الأسبق وقلت له:

- لا أريدك. إذ ربما أغاظ ذلك أستاذك.

إلاّ أنه سعى حتى حمل سيده على توجيه رسالة اليّ قال فيها انه لايمانع في إستخدامه عندي. فضممتهُ اليّ وأستمر يعمل في دكاني بضعة أشهر. كان هزيلاً شاحب الوجه عندما جاءني ولذلك لقبناه بـ(Il Vechino) أي "الشيخ الصغير". وكنت في الواقع أنظره بهذا المنظار فقد أثبت بأنه مساعد كفء ولأنه كان فهيماً بشكل يصعب عليك أن تتوقعه من أبن ثلاث عشرة وهو العمر الذي إدّعاه لنفسه.

أعود الى حديثي فأقول: بعد أشهر قليلة من وجوده عندي زال عنه شحوبه وإمتلأ جسمه وإنتهى بأن صار من أكثر الشبان وسامةً في روما. كان مساعداً ممتازاً كما ذكرتُ، وحقق تقدماً عظيماً في الصنعة. حتى فاز بحبيّ فإعتبرته في مقام ابن لي وكسوته الثياب التي يختارها الأب عادة لفلذة كبده . ولما وجد النعمة التي هبطت عليه عدّ نفسه سعيد الحظّ جداً لوقوعه عَليّ. وكثيراً ماكان يتردد الى أستاذه السابق ويشكره لأنه كان السبب في النعمة التي يرفل فيها وكان لهذا الصائغ الإسپاني زوج جميلة صغيرة السنّ وفي مناسبة أحدى زياراته سألته هذه:

- قل لي يا (سورغيتّو Surgetto) (وهو اللقب الذي كانوا يطلقونه عليه أيام وجوده عندهم) ما الذي يجعلك تبدو بهذه الوسامة؟

فأجاب أسكانيو:

- مادونا فرانشسكا! هذا من فضل أستاذي. بل أن فضله يمتد الى أكثر من هذا بكثير!

ان طبع هذه المرأة الحقود جعلها تغضب من جوابه فقد عدّته تعريضاً بهما. وكانت فضلاً عن هذا مثلومة الشرف سيئة السمعة. وصرت الحظ أن الفتى أخذ يكثر من زياراته خلافاً لمألوف عادته. ثم أتفق ذات يومٍ أنه أعتدى على واحد من صبيان الدكان بالضرب فهرع المضروب يستقبلني عند عودتي شاكياً باكياً وقال أن (اسكانيو) إعتدى عليه دونما سبب فالتفتُّ الى (اسكانيو) وقلت:

- بسببٍ أو بدون سبب. أيّاك أن تمدّ يدك على أي شخصٍ من أهل بيتي مرة أخرى. وإلاّ نالك منيّ ماتكره.

وجد في نفسه الجرأة في الإعتراض على قولي. فهممت به فوراً وأشبعته ضرباً ولكماً ورفساً، بشكل لم يذق مثله في حياته. وما أن تمكّن حتى فرّ هارباً دون قبعة أو سترة. ومضى يومان على فراره وأنا أجهل أين هو. كما إني لم أحاول التفتيش عنه. بعد هذا جاء لزيارتي سيد إسپاني يدعى (دون دييگو) وهو من أكرم الرجال وأطيب الناس قلباً. كنت قد قمت له ببعض الإشغال في السابق. وكان بيدي شغل له في ذلك الحين ونحن على أحسن علاقة. قال لي إن (اسكانيو) عاد الى أستاذه السابق. وسألني إن شئتُ أن أبعث إليه بقبعته وسترته وهما من جملة ما ابتعته له. فكان جوابي أن (فرانشسكو) أساء التصرف جداً كالأجلاف تماماً. إذ لو انه أعلمني حال وصول أسكانيو بيته لتركته

له بكلّ سرور إلاّ انه ابقاه يومين دون أن ينطق بكلمة ولهذا فإني لا أعتزم أن اتركه يمكث هناك وليكن على حذرٍ منيّ إن وقع نظري على الفتى في منزله. فنقل (دون دييگو) اقوالي هذه. الاّ أن فرانشسكو جعلها مادة للتندّر والمزاح.

في صباح اليوم التالي رأيت (اسكانيو)[٢٠٨] في دكان أستاذه يعالج شيئاً تافهاً مربوطاً بأسلاك. ولّما مررت به ورآني نهض وانحنى لي إحتراماً. إلاّ أن فرانشسكو كشّر هازئاً. ثم أرسل بوساطة هذا النبيل الإسپاني قائلاً انه يرجو مني أن إتلّطف على اسكانيو بالثياب التي منحتها له، على إنه لن يكون للموضوع تأثير في حالة إرسالها أو الإحتفاظ بها لأنه سيكفيه حاجته من الثياب.

بعد أن وعيت فحوى الرسالة قلت لـ(دون دييگو):

– سيدّي (دون دييگو) لقد عرفتك في كلّ شيء مثالاً للإستقامة والكرم. الاّ ان فرانشسكو هذا النذل السيء السمعة هو بعكسك تماماً. الاّ بلّغه عنيّ هذا: إن لم يُحضر (اسكانيو) بنفسه في دكاني قبل ناقوس صلاة المساء فإنيّ قاتله لا محالة. وقل لاسكانيو أيضاً أن لم يترك العمل عند أستاذه في عين هذا الموعد فسيلقى عين المصير.

لم يعقب (دون دييگو) على قولي إلاّ انه عاد ليشيع الخوف الهائل في أوصال فرانشسكو، حتى كاد يفقده عقله من فرط حيرته. في تلك الأثناء كان (اسكانيو) قد خرج يبحث عن ابيه الذي قدم الى روما من مسقط رأسه (تاليا كوزوّ Taglia Cozzo)[٢٠٩]. ولما سمع ابوه عن النزاع نصح (فرانشسكو) بدوره بأن يأتيني باسكانيو فصاح فرانشسكو به:

– طيبّ. إذهب انت بنفسك وليرافقك أبوك.

الاّ ان (دون دييگو) قال له:

– إني لأشعر يا فرانشسكو، بالعاصفة تهبّ. وأتحسس وقوع مشكلة خطيرة. وأنت تعرف جيداً أي صنف من الرجال هو بنڤنوتو فاقدمْ ولاتتردد. خذ اسكانيو إليه وسأرافقكما.

كنتُ في دكاني وقد تأهبت لما أنا مقدم عليه وأخذت أذرع الأرضية جيئة وذهاباً منتظراً ناقوس صلاة المساء لأباشر أعنف وأقبح عملٍ قمت به في حياتي وفيما أنا بهذا إذ دخل عليّ (دون دييگو) وفرانشسكو واسكانيو ووالده الذي لم يسبق لي به معرفة. عندما تقدّم (اسكانيو) منيّ رميت الجميع بنظرة صاعقة وعيناي تقدحان شرراً. فعلت وجه فرانشسكو صفرة الموت وقال متلعثماً:

– ها أنا ذا أعيد إليك (اسكانيو)، ولم أكن أدري قطّ بأني أزعجك بإبقائه عندي.

وأعقبه (اسكانيو) قائلاً بكلّ إحترام:

– سيدي! إني أرجو صفحك. وقد جئت لأنفذ كل أوامرك وأكون رهن إشارتك.

(٢٠٨) سيتردد ذكر هذا الفتى في فقرات كثيرة من المذكرات. فقد رافق چلليني الى فرنسا ومكث فيها بعد أن غادرها سيده، وصار صائغاً للملك هنري الثاني. وتزوج بنتاً من أسرة روبيا Robbia التي أشتهرت بكثرة ما أنجبت من الفنانين. ويبدو أنّه عُرف فيمابعد بإسم [سنيور دي بيليو Signor de Beallieu].

(٢٠٩) بليدة تقع شمالي شرق روما بحوالى سبعين كيلومتراً.

- أجئت لإكمال المدة التي أرتبطت بها معي؟

فأجاب بالأيجاب، وأضاف أنه لن يتركني بعد الآن. عندها ألتفتُّ الى الصبي الذي كان (اسكانيو) قد إعتدى عليه وأمرته أن يسلمه صرّة ثيابه وأردفت قائلاً:

- دونك كلّ الثياب التي أإبتعتها لك. فخذها وخذ معها حريتك، وأذهب أنّى شئت.

كان (دون دييگو) يتوقع كلّ شيء إلاّ هذا. فبدت عليه علائم الدهشة واضحة. وبعدها راح الأب والأبن يستغفران ويطلبان صفحي وإعادته الى العمل عندي. فسألت من هو هذا الشخص الذي يلتمس لاسكانيو، فقال إنه ابوه فرحبّت به وجاملته ثم قلت:

- مادمت أباه فإني سأعيده الى العمل إكراماً لك.

كما ذكرت قبل قليل، صح عزمي على السفر الى فرنسا، وسبب هذا يرجع إني ادركت بأن الپاپا لم يعد لي عنده التقدير أو المكانة ذلك لأن خدماتي المخلصة لُطخت بالافتراءات كذلك كنت أخشى أن أنال الأسوء من كيد اعدائي لذلك كنت متحرقاً الى إختيار بلاد أخرى قد يقبل عليّ الحظّ فيها بعد ادبار، وكنت على استعدادٍ للرحيل وحدي. وفي ليلةٍ من الليالي قررتُ أن أنطلق صباحاً. ففوضت شريكي (فيليچي) بإستعمال كل ما أملكه الى حين عودتي. وإن لم أعد فكلّ ما أملكه هو له. وكان لديّ مساعدٌ من أهل (پيروجيا) عاونني في صنع حلى الپاپا هذا الشخص الحّ عليّ بإصطحابه وقال إنه سيتكفلّ بنفقات سفره. وإن شاءت المقادير أن أبقى في خدمة ملك فرنسا فمن الأفضل أن يكون معي مساعدون ايطاليون من بني جلدتي وخصوصاً أولئك الذين هم أهلٌ لإعتمادي. كنت قد دفعت له حسابه وصفيت كل علاقتي معه إلاّ أنه تشبّث بي وألحف وتوسّل حتى وافقت على اصطحابه بالشروط التي إقترحها هو.

وكان (اسكانيو) حاضراً أثناء ذلك فكاد يجهش بالبكاء، ثم إنه قال لي:

- عندما عدتُ إليك، قلتُ لك إني سألازمك طول العمر وأنا ثابت على قولي.

قلتُ إني لا أوافق على هذا بأيّ حالٍ من الأحوال، إلاّ أن الفتى المسكين بدء بتأهب للحاق بي سيراً على القدم. فرقّ له قلبي وزوّدته بحصان .وضعتُ حقيبة فوق كفل الحصان وأثقلت نفسي بمتاع يزيد عن حاجتي بكثير وتركت روما متجها الى فلورنسا. ومن فلورنسا الى بولونيا. ثم الى البندقية ثم الى پادوا. وهناك جرّني صديقي العزيز (البرتاچيو دي بينيني) من الفندق جراً وأنزلني في داره. وفي اليوم التالي توجهت لتقبيل يدي المونسنيور (پييترو بمبو Pietro Bembo)[٢١٠] ولم يكن قد نصب كردينالاً بعد. فرحبّ بي ترحيباً حاراً لا أقوى على وصفه ثم التفت الى (البرتاچيو) وقال :

- إني أريد بنڤنوتو وكلّ خدمه ان يمكثوا ضيوفاً عندي ولو بلغ عددهم المائة. وإن شئت أنت صحبته فتعال وأبق هنا معي. وإلاّ فإني مصمم على الإحتفاظ به.

(٢١٠) (١٤٧٠-١٥٤٧) نصب كردينالاً في ١٥٣٩، وولد في البندقية وكان كما وصفه چلليني أديباً ضليعاً ومن أكبر مشجعي الأدب والعلم. ويشك (پلون Plon) (أحد مترجمي المذكرات الى الفرنسية) في أن چلليني أكمل صنع الميدالية فهو لايذكرها بشيء لا في مذكراته ولا في رسالته.

وهكذا قضيت أطيب الأوقات مع هذا السيدّ الألمعيّ. وأفرد لي حجرة فخمة حتى بالنسبة الى كردينال وأصرّ على ان اتناول كل وجبات الطعام معه وبعدها بدأ يلمّح بكياسةٍ وبأسلوب رقيقٍ برغبته في أن أعمل له صورة. ولم يكن أحبّ اليّ من هذا فجبلت كميّةً من مسحوق باريس الأبيض الناصع في صندوق وبدأت العمل. في اليوم الأول جلست ساعتين كاملتين، أنقل رأسه الجميل بدقة أذهّلت سيادته. كان أديباً المعيّاً عظيم الشأن فضلاً عن عبقرية غير عادية في قرض الشعر لكن لما كان يجهل تماماً أمور فنيّ فقد تصوّر بأني إنتهيت من الصورة، في حين اني لم أكد ابدء. وتعذّر عليّ أفهامه بأن ضبطها وإتقانها يتطلب وقتاً طويلاً. أخيراً قررت أن أصبّ فيها كلّ معرفتي وأن أوقف عليها كلّ وقتي. وكانت لحيته قصيرة، يشذبها على طريقة أهل البندقية الأمر الذي كبّدني عناءً كبيراً في تصوير الرأس حتى غدا موضع رضاي. مع كلّ ذلك فقد تمّ. وإعتقدت بأنّ يدي أنجزت أبدع عمل وأكمله من جميع النواحي. وكان الكردينال ذاهلاً حائراً. إذ بعد أن وجدني أفرغ من النموذج الشمعي في ظرف ساعتين، حسب إني سأصبّه بالفولاذ في ظرف عشر ساعات. ولكن سرعان ما وجد إني في الحقيقة لم أنته من النموذج الشمعي الاّ بعد مائتي ساعة، وتعاظم قلقه عندما إستأذنته بالرحيل الى فرنسا ثم أخذ يتوسل بي لأعمل على الأقل نموذجاً لظهر الميدالية يمثلّ الحصان (بيكاسوس Pegasus)[٢١١] يحيط به أكليل الغار. فعملته في ثلاث ساعات تقريباً ووقع في نفسي مضيفي أفضل موقع لدقته وجماله وعلق بقوله:

– حسبتُ أن تصوير الحصان بهذا الشكل أصعب بعشرة أضعاف من تصوير الرأس الذي كلفك هذا القدر من العناء. إني لا أدرك اين تكمن الصعوبة.

ثم بدء يتوسّل بي لأقوم بصبّه بالفولاذ قائلاً:

– رجائي منك أن تنجزه كفضل خاصّ منك وبإمكانك الإستعجال به لو شئت.

أكدّت له إنيّ سأقوم بعمل الميدالية عندما أستقرّ في موضع وأباشر عملي وإني لا أنوى أن أشتغل بها هنا. وبين هذا الأخذ والردّ، كنت في سبيل شراء ثلاثة خيول للرحلة الى فرنسا. ولم أكن على علم بالنفوذ الذي يتمتع به (بمبو) في (پادوا) إذ كان يتتبع حركاتي خفية. فلّما هممت بدفع ثمن الخيول وكنا إتفقنا على خمسين دوقية قال المالك:

– نظراً لأنك من كبار الفنانين فإني أقدمها لك هدية!

فأجبته:

– ليست الهدية هديتك. ولا أريد قبولها من المُهدي الحقيقي لأني لم أتمكن من عمل أي شيء له.

وعندئذ صارحني الرجل اللطيف القول، بأني إن لم أقبل هذه الخيول فلن أجد حصاناً واحداً يُشرى في (پادوا)، وسأضطر الى السفر سعياً على القدم، ففهمت وعدتُ الى المونسنيور المبجلّ (پييترو) فتظاهر بأنه لايعرف شيئاً عن القضيّة. إلاّ انه رحبّ بي بحرارة وعاد يلحّ عليّ بالبقاء في (پادوا)،

(٢١١) في أساطير الأغريق. هو حصان مجنحّ. خرج من دم (ميدوسا) بعد أن قتلها پرسيوس. (أنظر الحواشي التالية).

ولما كان هذا يخالف رغبتي وبما أني عقدت العزم على مغادرة (پادوا) فقد أضطررت الى قبول الخيول وإنطلقت بها حال سبيلي.

إخترت الطريق المارة بالـ(گريسون Grisons)[٢١٢] لأن الطرق الباقية لم تكن آمنة بسبب الحرب الدائرة وقتذاك[٢١٣]. وعبرنا قمتيّ (آلبولا Albula) و(برنينا Bernina)[٢١٤] مخاطرين بأرواحنا إذ كان يغطيهما ثلج كثيف في الثامن من أيار. ثم توقفنا في محلّ يسمى (ڤالنشتد Wallensdadt)[٢١٥] إن لم تخنيّ الذاكرة. فوجدنا نزلاً متواضعاً للمبيت. وفي تلك الليلة وصل ثمّ ساعٍ فلورنسي يدعى (بوسباكّا Busbacca). كنت قد سمعتُ من يمدحه ويصفه بأنه رجل ثقة وكفاءة. ولم أدر إن سلوكه المتحايل قد أفقده سمعته. ما أن وقع نظره عليّ في الفندق حتى ناداني باسمي وقال لي أنه يقصد (ليون) لأعمال في غاية الأهميّة ثم سألني إقراضه بعض المال ليستعين به على السفر. فأجبته إني لا أملك مالاً للإقراض إلاّ اني سأتكفلّ بنفقاته إن جاء معي حتى (ليون). وبدأ هذا النصّاب ينسج خيوطاً من الأكاذيب والدموع تنهمر من عينيه قائلاً عندما يكلّف ساع مسكين فقير بمهمة خطيرة تتعلق بالدولة فيجد نفسه بحاجة الى المال فمن الواجب على أي فلورنسي من طبقتي الإجتماعية أن يساعده. وأضاف يقول أنه يحمل معه أشياء في غاية الأهمية تعود الى النبيل (فيليپو ستروّزي). وكان معه حقيبة ذات غطاء جلدي قال وهو يهمس في أذني أن في داخلها طاساً فضيةً مملوءة بأحجار كريمة قيمتها عدة الآف من الدوقيات فضلاً عن رسائل في غاية الخطورة مرسلها (فيليپو ستروزي). عندما سمعت قوله هذا أشرتُ عليه بأن يدعني أخفي هذه الجواهر في ثيابه التي يرتديها فهو أقلّ خطراً عليها من بقائها في الحقيبة وأن يترك لي حفظ الطّاس الذي قد يسوي عشرة كراونات وأن شاء إبتعته منه بخمسة وعشرين. فأجاب الساعي يقول إنه لايستطيع أن يعمل أكثر من المجيء معي لأن بيع الطاس يسيء الى سمعته.

فتركنا الأمور بهذا الشكل. وفي صبيحة اليوم التالي إستأنفنا السفر فبلغنا بحيرة تقع بين (ڤالنشتاد) و(وڤيسنّ Wesen) وطولها يبلغ خمسة عشر ميلاً[٢١٦]، فتكون (ڤيسن) في نهايتها. أدركني الهلع عندما شاهدت أي نوع من القوارب تستعمل في هذه البحيرة لأنها مصنوعة من خشب الصنوبر وهي صغيرة وضيقة وغير مُجلَفطة[٢١٧] أو مطلية بالغار. ولو لم أشاهد أربعة من المسافرين الألمان يركبون واحداً منها مع خيولهم لما أقدمت أنا نفسي ولعدتُ من حيث أتيت دون تردد. فعندما رأيت إستهتارهم الأحمق قلت لنفسي إن هذه البحيرات الألمانية لاتُغرق الناس مثل بحيراتنا

(٢١٢) من المقاطعات السويسرية.

(٢١٣) هي الحرب التي نشبت بين إسپانيا وفرنسا في پيدمونت وإنتهت بمعاهدة نيس في ١٥٣٧.

(٢١٤) قمتان من سلسلة جبال الألب الشرقية. يزيد إرتفاع الثانية عن ثلاث عشرة ألف قدم.

(٢١٥) بلدة تقع في الشمال الشرقي من سويسرا.

(٢١٦) تدعى هذه البحيرة ڤالين Wallen وليس كما سمّاها چلليني .

(٢١٧) أي ليست ملتحمة الألواح بشكل يمنع دخول الماء.

الأيطالية. مع هذا فإن رفيقي السفر قالا:
- بنڤنوتو! سيكون تهوراً منّا أن نستقلّ هذا القارب مع أربعة خيول.
فأجبتهم:
- أما ترون أيهّا الجبناء كيف سبقنا هؤلاء السادة الأربعة الى قاربهم وهم يضحكون غير مبالين؟ لو كان ما في البحيرة خمر لَقلت إنهم مُبتهجون لفكرة إحتمال غرقهم فيه. لكنه ماءٌ فحسب وإني لواثق بأنهم يكرهون أن يبتلعهم الماء أكثر مما نكره.

يبلغ عرض البحيرة ثلاثة أميال وطولها خمسة عشر. ويشرف على أحد شاطئيها جبلٌ أشمّ مليء بالكهوف والعديد من الأطناف والكتل الصخرية. أما الشاطيء المقابل فهو سهل مبنسط ممرع أخضر. وبعد أن قطعنا أربعة أميال من الشاطيء هبت ريحٌ شديدة فطلب منا الملاحون مساعدتهم ففعلنا فترةً من الزمن، وبدأت أشير إليهم واصيح بأن يتجهوا بنا الى الساحل الآخر لننزله. فقالوا هذا غير ممكن لأن الشاطيء ضحلٌ رمليّ وقد يتحطم بنا القارب فنغرق جميعاً وطلبوا منا نجدتهم مرّة أخرى. وأخذ النوتيّة يهيب بعضهم ببعض للمعاونة. فتبين لي الخطر المحدق بنا من وضعهم السيء . فوضعت اللجام في عنق جوادي الذكي وأمسكت بالرّسن بيدي اليسرى. وبدالي وكأن الحيوان أدرك بغريزة فصيلته ماذا أقصد حالما الويت برأسه الى جهة العشب الغضّ. كان هدفي أن يسبح الى تلك الجهة ويسحبني خلفه الى اليابسة. وفي تلك اللحظة إندفعت الى القارب موجة عاتية وإعتلته. فصاح اسكانيو:
- أبي رحماك عَونك!

وهم بالارتماء عليّ. فجردت خنجري الصغير وأمرتهُم بأن يحذوا حذوي. وقلت بصوت جهوري إن الخيول ستنقذ أرواحهم وهذه هي الوسيلة التي سأستخدمها أنا للنجاة، إلاّ إني سأقتله إن حاول التشبث بي ثانية. وهكذا قطعنا أميالاً أخرى والخطر محدق بنا.

وجدنا وسط البحيرة قطعة أرض منبسطة تصلح للإستراحة. ورأيت الألمان الأربعة وقد نزلوا إليها. فطلبت من النوتية كذلك الرسوّ أيضاً. لكنهم رفضوا معاندين فقلت لأصحابي الشبان:
- حان الوقت الآن لنثبت لهؤلاء أي صنف من الرجال نحن. جرّدوا سيوفكم وسنرغمهم على إنزالنا الى الساحل.

حققنا ما أردناه بعد أن أبوا وقاوموا ما إستطاعوا.

بلغنا الشاطيء الآخر أخيراً. وكان علينا أن نتوقل الجبل جيداً بمسافة ميلين. وهو كما وجدنا أصعب من إرتقاء سلّم. كنت مرتدياً زرداً كاملاً. وفي رجلي جزمة ركوب ثقيلة وبيدي بندقية. والله يصبّ علينا كل مافي سمائه من مطر. هؤلاء الألمان الشياطين كانوا يتقدمون بخطى حثيثة مذهلة وقد جمع كل منهم زمام حصانه الصغير بيده في حين لم تكن خيولنا ذات نفع قط. وأخذت قوانا تخور من الجهد الذي نبذله لإرغامها على الصعود الشاق. وكان (إسكانيو) في المقدمة وقد أعطى (بوسباكا) حربته ليحملها عنه. فعثر فرسه الهنغاري الممتاز وأجفل مرتداً الى الخلف بسبب وعورة المرتقى وعجز

تماماً عن الإحتفاظ بتوازنه وإرتمى على سنان الحربة التي كان الساعي النذل ممسكاً بها لم يكن من حضور الذهن في شيء ليبعدها عنه. فنفذت في عنقه. فتقدم عاملي الآخر للمساعدة فزلّت القدم بحصانه الأسحم وهوى الى ماء البحيرة، لكنه علق بشجرة ضعيفة الساق لاتتحمل ثقله فمالت به الى تحت. وكان هذا الحصان محملاً بخرج مزدوج، وفيهما أودعت كل نقودي وأثمن ماعندي. لكني صحت بالفتى أن يعنى بنفسه وليذهب الحصان الى سقر. كانت الهاوية التي إستعدت لإستقبال الحصان بعمق ميل. يليها سفح شديد الإنحدار ينتهي بالبحيرة وتحت موضع السقطة مباشرة يوجد مقرّ للنوتية. فلو أكمل الحصان سقطته لهوى على أم رأسهم. توقفت قليلاً إذ كنت أتقدم الركب. ورحت أعدّ الثواني إنتظاراً للسقطة وهي كما بدا لي محتومة لا سبيل لتفاديها. ثم صحت بالجماعة:

– لاتهتموا بأي شيء. ودعونا ننقذ أنفسنا ونحمد الله على ذلك. إني متألم فحسب على (بوسباكا) المسكين الذي شدّ وعاء جواهره بقيمتها البالغة آلافاً من الدوقيات في سرج الحصان الساقط معتقداً انه آمن موضع لها. أمّا أنا فلن أفقد أكثر من بضع مئات من الدوقيات. ولن أشعر بخسارتها قط بعون الله.

فهتف (بوسباكا) قائلاً:

– لست مهتماً بمقتنياتي. إلاّ أني شديد الحزن على مافقدت.

قلت:

– أتهتم بالقليل الذي عندي ولاتكترث بالكثير الذي تحمله؟

فأجاب يقول:

– سأصارحك بالحقيقة والله! ففي مثل هذه المآزق الخطرة يجمل بالإنسان أن يقول الصدق. أنت فقدت مقداراً من الكراونات. وهي كراونات حقيقية وأنا أعرف هذا. ولكن أتدري إن حقيبة الطاس التي زعمت لك أنها مملوءة بمقدار كبير من الحجر الكريم والتي كذبت حولها كثيراً؟ أتدري أن ليس فيها إلا كاڤيار!

بهذا لم أستطع مغالبة الضحك. وشاركني فيه الشابان. أما (بوسباكا) فقد أجهش بالبكاء. في تلك الأثناء ولدهشتنا جميعاً مارأينا الحصان إلا وقد تحامل على نفسه وإستوى على قوائمه بعد أن نفضنا أيدينا عنه وعددناه هالكاً. وإستجمعنا قوانا ومضينا نتوقل الجبل ضاحكين. وقد سبقنا الألمان الأربعة الى القمة ثم أرسلوا إلينا عدداً من الرجال لمساعدتنا. أخيراً بلغنا موضع الإستراحة في ذلك المستوحَش، منهكين جائعين نقطر ماءً. فأُستقبِلنا بحرارة وأمكننا تجفيف ثيابنا وإصابة فترة من الراحة وإشباع بطوننا. وعالجنا خيولنا المجرّحة المخدوشة بأعشاب جبلية دلّنا عليها القوم. كانت شقوق الصخر تعج بهذه الأعشاب. وقالوا أننا لو قمنا بوضعها على ورم أو جرح في الحيوان فإنه يبقى صالحاً للحمل والركوب فضلاً عن إلتئام الجرح تدريجياً بتأثيرها فطبقنا قولهم هذا وحشونا جراح حيواناتنا بها. ثم شكرنا هؤلاء السادة الألمان وإنطلقنا في رحلتنا نحن نشعر بالنشاط، لاننفك نحمد الله على نجاتنا من هذا الخطر العظيم.

وتوقفنا في موضع يلي (ڤيسّن) وبتنا ليلتنا فيه. وكان صوت غناء خفير الليل الرخيم يتناهى إلينا طوال الليل. وبما أن بيوت القرية كلها من خشب الصنوبر فوظيفة خفير الليل الوحيدة هو الإنذار بالحريق. وكان (بوسباكا) يرتعد ويتنهد أثناء نومه – من تأثير يوم الأحد الماضي في أعصابه كلّما رفع الخفير عقيرته بالغناء ويهبّ من فراشه صارخاً:

– رحماك يا رب! إني أغرق...

كان بعض هذا من آثار متاعب اليوم السابق. وبعضه لمحاولته مساء اليوم نفسه مغالبة الألمان في الشراب. وقرع الكأس بالكأس مع كل من وجده منهم. فمرة كان يصرخ "إني أحترق" ومرة كان يصيح "إني أغرق". وبين هذا وذاك كان يحلم أنه يعذب في سعير جهنم والكاڤيار معلّق برقبته.

على كل حال كانت ليلتنا ممتعة مؤنسة وإنقلبت متاعبنا الى مرح. ووجدنا الجو صحواً رائعاً في الصباح. وذهبنا لتناول الطعام في موضع صغير رائع يدعى (لاخن Lachen)[٢١٨] وقدّم لنا أشهى المآكل وبولغ في خدمتنا. وبعدها إستأجرنا بعض الأدلاّء وكانوا في طريق عودتهم الى مدينة تسمى (زوريخ Zuriech). سلك بنا الدليل طريقاً معبدة تحاذي البحيرة. ولم يكن ثمّ طريق غيرها. وهذا كان يغمره الماء. فأدى الى عثار الحصان وفوقه الدليل الأبله. وسقط هو وراكبه في الماء وكنت أسير خلفه فجذبت عنان حيواني وإنتظرت حتى إستوى الحصان الساقط على قوائمه فنهض الدليل وشرع يغنيّ ثانية وكأن لم يحدث شيء مشيراً علينا باللحاق به. وعند هذا إندفعت نحو اليمين مجتازاً بعض الحواجز ومرشداً (بوسباكا) والفتية الى الطريق. فصاح بنا الدليل قائلاً بالألمانية لو أن أحداً رآني لأطلق عليّ الرصاص. إلا أننا إحتثثنا خيلنا الى الأمام ونجونا من الخطر.

ثم بلغنا (زوريخ) وهي مدينة ساحرة تستطع مثل جوهرة صغيرة. وإسترحنا فيها يوماً كاملاً وحططنا الرحل في اليوم التالي ببلدة جميلة أخرى إسمها (سولوثورن Solothorn)[٢١٩] ومنها الى لوزان ومن لوزان الى (جنيڤ) ومن (جنيڤ) الى (ليون) ونحن نغني ونضحك طوال الطريق. ومكثت في (ليون) أربعة أيام وقضيت وقتاً ممتعاً مع بعض الأصدقاء وعُوّضت عما دفعت من نفقات لـ(بوسباكا). وبعد ختام الأيام الأربعة إنطلقت الى پاريس. وكانت رحلة طيبة خلا حادثة واحدة بالقرب من (لاپاليس La Palice). عندما حاولت الفتك بنا عصابة من قطاع الطرق عرفت بإسم "المغامرين". إلاّ أننا قاتلناهم ببسالة، وإندفعنا مسرعين الى پاريس. فوصلناها بسلام نتضاحك ونغني طول الطريق ولم يقع لنا حادث يذكر.

خلدت الى الراحة مدة من الزمن في پاريس، ثم بدأت أبحث عن الرسام (روسّو) الذي كان في خدمة الملك. وكنت أعد صاحبي هذا أفضل صديق لي في الدنيا. إذ أني أريته من العطف والإكرام في روما مايجلّ عن الوصف. إن في مقدوري إجمال فضلي الكبير عليه ببضع كلمات، ولأجل أن أظهر صفاقة الوجه ونكران الجميل الذي قابلني بهما سأثبت الوقائع. ففي (روما) أطلق لسانه الخبيث

(٢١٨) تقع في الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة زوريخ.

(٢١٩) بينها وبين زوريخ الى الغرب حوالى ٤٥ ميلاً. ويبدو من هذا أن چلليني كان سريع السفر.

في إنتقاص أعمال رافائيل الأوربيني فوقع في ورطة. إذ حلف تلاميذ (رافائيل) على قتله. وكنت أنا منقذه من محنته بحراستي له ليلاً ونهاراً وتضحيتي براحتي في هذا السبيل. ثم أطلق لسانه في القذف والتشهير بالمهندس المعماري الممتاز (أنطونيو دا سان گالو Antonio di san Gallo)[٢٢٠] وبنتيجة ذلك سُحب من يد المهندس عمل كان قد عهد به اليه من قبل (أينولو دي چيزي Agnolo di Gesi). فبدأ (أنطونيو) يلاحقه ويضيق عليه حتى أوصله الى حالة الجوع فأقرضته بضع عشر من الكراونات ستراً لخلّته. ولم يسددها لي الى يومنا هذا. وبعلمي أنه الآن في خدمة الملك فقد قصدته كما قلت في زيارة لا لأطالبه بديني أو متوقعاً منه الوفاء به، وإنما كنت أومل ان يستخدم نفوذه لمساعدتي في دخول خدمة الملك أيضاً. لما وقعت أنظاره عليّ بدت عليه علائم الإرتباك والحرج فكان أول قوله:

– إنك يا بنڤنوتو أنفقت مالاً كثيراً في رحلتك هذه الطويلة ولاسيما في هذا الوقت الذي تركزت كل الأفكار في الحرب. ولم يعد أحد يكترث بمجهوداتنا التافهة.

فأجبت بقولي إن المال الذي جئت به يكفي لعودتي الى روما سالكاً نفس الطريق التي أوصلتني الى پاريس، وهذا ليس بالرد الذي توقعته على ماصدر مني تجاهه من أياد بيضاء. وإني صرت الآن أصدق كلام (أنطونيو دي سان گالو) عنه.

أدرك مبلغ نذالته فأراد أن يلطّف الموقف بضحكة منه إلا أني أريته حوالة مالية بمبلغ خمسمائة كراون مسحوبة لأمري على (ريچاردو دل بيني Ricciardo del Bene). فعلا هذا الحقير الخجل التام من نفسه. وبذل كلّ جهده لإبقائي إلاّ أني أطلقت ضحكة شامتة في وجهه وخرجت صحبة رسام كان واقفاً هناك. هذا الرجل يدعى (سكوازّيللاّ Squazzella) كان مواطناً فلورنسياً. وقد إتفقنا على السكنى عنده بمبلغ معين انا وثلاثة خدم وثلاثة خيول. فبالغ في رعايتنا وخدمتنا على أحسن وجه. فزدت له في الأجر المتفق عليه.

بعد ذلك حاولت الوصول الى الملك، وقد قدمني إليه أمين خزانته المدعو (يوليانو بوناكّورزي Giuliano Buonaocorsi) وكان عليّ الإنتظار طويلاً وكنت أجهل ان روسو راح يحاول المستحيل للحيلولة دون ذلك. ولما علم (يوليانو) بالأمر أخذني في الحال الى (فونتنبلو) والى الملك رأساً. وكانت مقابلة في غاية اللطف وتبسط جلالته معي فمكثت في حضرته ساعة كاملة. ولما كان الملك يتهيأ للرحيل الى (ليون) فقد أمر (يوليانو) أن يأخذني معه وقال إنه ليودّ ان نبحث أثناء السفر بعض الأعمال الفنية التي يفكر جلالته في تنفيذها له.

(٢٢٠) أنطونيو الأصغر. وهو تلميذ عمه أنطونيو دبوليانو. عمل في (لوريتو) و(اوڤيتو) وروما. وساهم في بناء كاتدرائية بطرس المعروفة. أنظر سيرته في (ڤاساري، ج٥). كلفه الكردينال ڤارنيزي ١٥١٤ (فيما بعد البابا بيوس الثالث) ببناء قصر ڤارنيزي الذي يعتبر اليوم من أجمل أبنية الرينسانس في روما. فأنجز الواجهة وطبقتين منه ثم توفي وقام ميكالنجلو بإكماله. ومما يذكر في هذا الصدد ان تصميمه لبناء كاتدرائية القديس بطرس وهو من الخشب وبإرتفاع أكثر من (١٥) قدم على قاعة كبيرة مازال موجوداً وهو من محفوظات الڤاتيكان. وقد رفضه ميكالنجلو بسبب الزوايا والخبايا الكثيرة فيه وإتخذ التصميم الحالي.

فسافرنا وراء الركب الملكي وفي الطريق بالغت في تقديم إحتراماتي لكردينال (فِرارا)[٢٢١] الذي لم يكن قد تسلم بعد قلنسوة الكردينالية. وكانت أحاديثنا تمتد بنا طويلاً في الليالي. وأشار عليّ نيافته بالبقاء في (ليون) وعرض أن أكون ضيفاً عليه في دير داخل المدينة يعود له فأتمتع بالراحة حتى يقفل الملك عائداً من ساحة القتال. وقال ان الملك سيتوجه الى (گرينوبل Grinoble). ولو أني بقيت في ديره لنلت كل ما أريده.

بعد وصولنا (ليون) إعتلّت صحتي. وإبتلي اسكانيو بحمى الرُّبع: وبنتيجة ذلك ضقت ذرعاً بالإفرنج وبلاطهم وإنتابني حنين الى (روما) لا قِبَل لي بمغالبته. ولما تبين الكردينال شدة شوقي الى العودة. دفع لي مبلغاً من المال لأصنع له إبريقاً وطستاً فضيّين ما أن يستقر بي المقام هناك. وهكذا باشرنا في رحلة العودة على خيول ممتازة سالكين طريق (سامپلون Simplon[٢٢٢]) ورافقنا فرنسيون شطراً من الرحلة. وكان اسكانيو يعاني من حمى الرُّبع التي لازمته دون فكاك وأنا مريض بحمىّ مستمرة لاتزايلني لحظة واحدة وفي معدتي غثيان شديد لا أظنني تمكنت من إبتلاع رغيف كامل خلال أسبوع واحد، طوال أربعة أشهر. بتّ متحرقاً للعودة الى أيطاليا لأموت فيها لا في فرنسا.

بعد إجتيازنا جبال (سامپلون) جئنا الى نهر بالقرب من موضع يسمى (اندڤيرو Indevedro [٢٢٣] وكان واسع المجرى عميق الغور فوقه جسر طويل ضيق لا حاجز على جانبيه. وفي صباح ذلك اليوم كان الجسر مكسواً بطبقة سميكة من الجمد الأبيض. وصلت الجسر متقدماً على الآخرين وأدركت الخطورة التي تنطوي على عبوره فأمرت صانعيّ وخادميّ بالترجل وقيادة الخيل باليد وقطعته أنا بسلام وكنت أثناء ذلك أتبادل الحديث مع واحد من إثنين من الإفرنج وهو من النبلاء. أما الآخر وكان مسجّل عقود فقد كان يتبعنا على مسافة وهو يهزأ بي وبالفرنسي لأننا نتكبد عناء السير في حين لا خطر ثمّ. وإلتفت الى الخلف فوجدته في متنصف الجسر فرجوته أن يلتزم جانب الحذر لأنه في أخطر جزء منه. إلا أن طبيعة الفرنسيين أبت إلا أن تؤكد نفسها فيه، فقد صاح برطانته الفرنسية قائلاً إني جبان وليس هناك أقل خطر. ولم يكد ينهي قوله هذا حتى لكز جواده لكزةً خفيفة. فإنزلقت قدم الحصان الى حافة الجسر وهوى في اللجّة وأرجله متجهة الى السماء بالقرب من صخرة عظيمة. إن الله الذي يرحم الحمقى والمغفلين دفع الحيوان وراكبه الأكثر حيوانية منه الى الماء العميق فغاص كلاهما. ما إن رأيت هذا حتى إستدرت بأسرع ما أمكنني وقفزت معتلياً الصخرة. وإنحنيت حتى إستطعت الإمساك بطرف السترة التي يرتديها وسحبته الى فوق إذ كان تحت مستوى الماء. وكان قد إبتلع كمية كبيرة منه ولم يبق بينه وبين الغرق إلا قيد شعرة. فكان كلّ ماحضره من جواب باللغة الفرنسية قوله

(٢٢١) أحد أفراد الأسرة الحاكمة لدوقية فِرارا وهو (أيوليتو ديستي Ipolito d'Este) إبن ألفونسو دوق فِرارا عاش حيناً من الزمن في فرنسا. وكان من مشجعيِ الأدب والفن.

(٢٢٢) مضيق جبلي بين سويسرا وإيطاليا يمتد اليوم بالقرب منه نفق طوله سبعة أميال.

(٢٢٣) في بعض التراجم ثبت الإسم هكذا [VALDEVERDO: ڤالديڤردو] وربما قصد چلليني ڤال دي ڤيدر بمقاطعة التيرول السويسري. وأراد بالنهر [دوڤرين].

إني لم أفعل شيئاً والمهمّ هو وثائقه التي تسوى عشرات من الكراونات. وكان الغضب يبدو من لهجته وهو يقطر ماءً. عندئذ توجهت الى الدليلين اللذين يرافقانا وأمرتهما بإنجاد الأحمق وسأدفع لهما أجراً على هذا. فقام أحدهما بمساعدته وتمكن بكثير من المهارة والمجهود من إستنقاذ الوثائق ولم يفقد منها شيء. إلا أن الدليل الآخر لم يحرك إصبعاً واحدة.

والشيء بالشيء يذكر إننا إتفقنا على كيس مصرفٍ واحد أتولاه أنا. فعندما بلغنا الموضع الذي ذكرته سابقاً وانتهينا من الغداء. نفحت الدليل الذي أعانه من سقطته بدريهمات. فإعترض الفرنسي قائلاً إنه غير مسؤول عن دفعها وبإمكاني التبرع بها من مالي الخاص لأنه لايعتزم إعطائي أي شيء أكثر من الأجر الذي إتفقنا عليه لقاء خدماته كدليل. وهذا ما إضطرني الى الردّ عليه بحدة ومصارحته برأيي فيه. ثم أقبل الدليل الآخر على- وهو الذي لم يبذل جهداً قط- مطالباً بمبلغ له أيضاً. فقلت له:

- إن من يحمل الصليب هو الذي يستحق الجزاء ولا أحد غيره.

فأجاب يقول أنه سيريني عما قريب صليباً يستدر الدموع من عيني. فقلت رداً على هذا: في هذه الحالة سأشعل قطعة صغيرة من شمعة له وليكن على يقين بأنه أول من سيبكي[٢٢٤].

الموضع الذي كنا فيه هو بمثابة حدود بين الألمان والبنادقة فإنطلق الرجل ثم عاد يتبعه رهط من الرجال وهو يحمل رمحاً كبيراً. كنت فوق حصاني الممتاز فخفضت فوهة البندقية ثم إستدرت الى رفاق السفر وقلت:

- سأتولى قتله أولاً. وعليكم أنتم أن تؤدوا واجبكم أيضاً. فهؤلاء من قطاع الطرق القتلة. وهم يتعللون بهذه الحجة التافهة للقضاء علينا.

وتدخل صاحب الفندق الذي تناولنا غداءنا عنده، فنادى واحداً من مقدّميهم وكان رجلاً طيباً كبير السّن ورجا منه ان يضع لهذا النزاع حداً وقال له (يقصدني):

- إنه رجل شجاع للغاية. وإن تمكنتم من تقطيعه أشلاء، فلن يكون ذلك إلا بعد أن يصرع منكم عدداً كبيراً. وربما يفلت منكم بعد هذا.

وخفت الضجة وإنفضّ الجمع وقال لي رئيسهم الشيخ:

- إذهب بسلام. كان بإمكاننا أن نقطع أوتار ركبتك تقطيعاً، وإن كان معك مائة رجل.

أصاب الرجل كبد الحقيقة ولم أجهل ذلك قط وكنت قد صممت على الموت ولكني رفعت رأسي بعد أن تلاشى صدى السباب والشتائم وقلت:

- لقد إنتويت أن أقدم على كل ما يسعني الإقدام عليه لأثبت بأني من الأحياء الذين لايموتون بسهولة والرجل الذي يحسب له كل حساب.

(٢٢٤) في ترجمة أخرى نقلت هذه العبارة على الشكل الآتي: "... إني سأشعل شمعة صغيرة لذلك الصليب قد يكلف هو بحملها عندما يعاد للتكفير عن آثامه وهو مرتدٍ قميصاً أبيض". وهي من المراسيم التي تتبع عند تنفيذ حكم الموت في ذلك الزمن.

وواصلنا السفر. وفي تلك الليلة قمنا بتسوية حساباتنا في أول موضع إستراحة وفارقت رفاق السفر وبينهم ذلك الفرنسي البغيض وإن بقيت على أحسن صفاء مع النبيل الآخر. وذهبنا لوحدنا الى فِرارا ومعنا خيولي الثلاثة. بعد أن ترجلت قصدت بلاط الدوق حالاً للسلام على سموه، لأتمكن من مَن إستئناف سفري صباح اليوم التالي الى (سانتا ماريا دالوريتو Santa Maria da Loreto). إنتظرت وقد مرت ساعات على الغروب فأقبل الدوق. فلثمت يديه ورحب بي ترحيباً حاراً وأمر بجلب الماء لغسل يدي فقلت له مبتسماً:

– مولاي لي أكثر من أربعة أشهر لم أتناول خلالها من الغذاء شيئاً أكثر من مجرد إبقاء روحي في جسدي. ولإدراكي بأني لاأستطيع الإستمتاع بالطعام على مائدتك الملكية، فسأبقى أجاذبك أطراف الحديث أثناء تناول سموّك عشاءه، وسيستأنس أحدنا بالآخر في الوقت نفسه أكثر بكثير مما لو تناولناه معاً.

وهكذا صرنا نتبادل أطراف الأحاديث زهاء ثلاث ساعات ثم إستأذنت منه وإنصرفت. ولدى عودتي الى الفندق وجدت مأدبة فخمة في إنتظاري. فقد أرسل الدوق من مائدته أصنافاً مع كثير من الخمر المعتقة. ولما كان قد مرّ على موعد عشائي الإعتيادي مقدار ساعتين فقد تفتحت شهيتي فتناولت طعامي بلذة لأول مرة بعد أربعة أشهر.

وفي صباح اليوم التالي توجهت الى سانتا ماريا دا لوريتو. فأديت فريضة الصلاة والدعاء ثم إنطلقت نحو روما وبلغتها لأجد (فيليچي) المخلص الأمين. فتركت له دكاني بكلّ ما فيها من أثاث وبضاعة، وفتحت دكاناً آخر تجارو (سوگيرللر Sugherell) العطّار وهي أوسع وأرحب من الأولى.

حسبت أن ملك فرنسا العظيم قد نسيني تماماً. ولذلك تعهدت القيام بكثير من الأشغال لمختلف النبلاء كما كنت أشتغل أيضاً في إبريق وطاس الكردينال الذي كلفني بهما. وإستخدمت عدداً كبيراً من الشغيلة وقمت بصفقات تجارية طيبة في الحلي الذهبية والفضية. وإتفقت مع مساعدي الپيروجي أن يعمل قائمة بكلّ المبالغ التي أنفقتها عليه في الرحلة مع الثياب وغيرها من المصاريف فبلغت سبعين كراوناً تقريباً وإتفقنا على أيفاء دينه هذا بدفع ثلاثة كراونات كان يكسبها من عمله عندي. وبنهاية شهرين فرّ الوغد الزنيم وتركني مثقلاً بالعمل. قائلاً انه يرفض ان يدفع أي شيء من دينه المتبقى.

ونُصحت باللجوء الى القضاء لإستحصال حقي. في حين كان أول ماطرء في فكري هو قطع ذراعه وكنت سأفعل ذلك حتماً لو لم يقنعني أصدقائي بأن هذا لن يعود عليّ بالفائدة، إذ سأخسر نقودي وربما خسرت روما معها ثانية، كما إن المرء لايدري ماذا يتأتى من القتال في حين كان بإمكاني إستحصال أمر بإعتقاله وعندي العقد المكتوب بخط يده، فعملت بنصيحتهم وإن كنت أفضّل تسوية الأمر بطريقتي الخاصة. ورفعت شكوى أمام القاضي الپاپوي وربحتها بعد عدة أشهر. وكانت النتيجة أيداعه السجن.

وثم إكتنفتني الأشغال من كل صوب وكلها مهم ومن بينها قيامي بعمل كلّ الحلي والمصوغات

الذهبية والجوهرية للسيد النبيل (جيرولامو أوروسيني Grolamo Orsini)[٢٢٥] وهو والد (پاولو Paolo) الذي هو اليوم خَتَن الدوق كوزيمو دي ميديتشي دوقنا الحالي. ولم أكد أنتهي منها حتى تراكمت عليّ أعمال هامة أخرى هكذا دون فاصلٍ. وكان عندي ثمانية مساعدين نعمل ليلاً نهاراً في سبيل السمعة والربح.

فيما أنا منهمك بأعمالي المتراكمة وصلتني رسالة عاجلة جداً من كردينال فِرارا، هذا نصها:

"أي بنڤنوتو صديقي العزيز:

خلال الأيام القلائل الماضية تذكرك الملك العظيم القويم الدين وأبدى رغبته من ضمّك الى خدمته. فكان جوابي له بأنك قطعت وعداً بالعودة دون تأخير متى طلبت منك ذلك نيابة عن جلالته. فقال جلالته يجب أن يزوّد بنڤنوتو والحالة هذه بما يحتاجه من نفقات السفر. على أن تكون بالشكل الذي يليق بمن هم في مكانته. ثم أمر قائد أسطوله فوراً بأن يصرف لك من بيت المال مبلغ قدره ألف كراون فانبرى (الكردينال دي گادي) الذي كان موجوداً اثناء الحديث. وتقدم من جلالته قائلاً لاحاجة تدعو الى إستصدار مثل هذا الأمر لأنه (أي كردينال دي گادي) قد أرسل لك مبلغاً كافياً لتستعين به على السفر وإنك في طريقك الينا فعلاً. فإن كان ما زعمه الكردينال دي گادي صحيحاً- وهو ما أشك فيه كثيراً فأجب رسالتي حالاً. وسأمسك بطرف الخيط هنا وأعمل على إرسال المنحة التي وعدها بها ملكنا المعظم."

ألا فلتشهد الدنيا وكلّ من عليها من البشر كيف تعمل سوء الحظوظ في طوالعنا نحن أبناء البشر المساكين! لم اوجه طوال حياتي اكثر من كلمتين لهذا المغفل التافه الحقير من الكرادلة. وهذا التباهي والإدعاء لم يكن بدافع سوء النية ولا كان بقصد إيذائي وإنما هو محض فضول أحمق يريد به أن يظهر بمظهر الراعي للفنانين والمهتم بأمرهم وصاحب العلاقة بهم كابراً عن كابر، ولاسيما أولئك الذين يريد الملك ضمهم الى خدمته- مقلداً بذلك كردينال (فِرارا). لقد كان بدرجة من البلادة والغباء بعد ان أقدم على هذه الفعلة، إنه لم يخبرني بها قط ولو لحقني علم بها فربما كنت سأتدبر مخرجاً وأقيله من عناده الغبيّ بها تغطية لحيلته الساذجة الخرقاء. وبذلك يمكنني على الأقل المحافظة على سمعة هذا الجرو المدلل البليد فهو على كل حال إبن بلدي.

ما أن إنتهيت من تلاوة الرسالة حتى أسرعت في الإجابة ومما قلت:

"أمّا عما زعمه الكردينال دي گادي فلا علم لي به مطلقاً. ولو كان إقترح عليّ شيئاً

(٢٢٥) أسرة أورسيني هي إحدى أشهر أسرتين في روما. تنازعتا النفوذ طوال ثلاث قرون وكان منهما القادة والأمراء والپاپاوات والكرادلة. (الأخرى هي أسرة كولونا) ويرى الآن قصر آل أورسيني مشيداً فوق الملعب الروماني الأثري المعروف مارجللوس. الذي بدأ يوليوس قيصر بتشييده وأكمله أغسطس قيصر في (١١ ق.م). وجيرولامو أورسيني هنا هو سيد إقطاعية براچيانو Bracaono والقائد المعروف وزوجه هي فراشسكا سفورزا، وإبنه دوق براچيانو تزوج ببنت كوزيمو دي مديتشي ثم قتلها. وتزوج بڤكتوريا أكورّامبوني وهي بطلة مأساة (الشيطان الأبيض) للقصص الدرامي (جون ويستر ١٥٨٠-١٦٢٥) الإنگليزي.

من هذا القبيل لما تحركت من أيطاليا من غير إعلام نيافتك الكلّي والإحترام خاصة وإن أشغالي في روما كثيرة وجسيمة بشكل ما عهدته قبلاً..."

ثم إستطردت أقول مستدركاً:

"... إلا أن إشارة واحدة من جلالته القويم الدين، تأتيني عن طريق مقامٍ سامً كمقام الكردينال (فِرارا) تجعلني لا أتردد لحظة في ترك كل شيء ..."

بعد إرسال هذا الجواب. تفتق ذهن صانعي البيروجي الخائن عن عملية غادرة كتب لها النجاح في الحال، ويُعزى جانب من نجاحها الى بخل البابا پولس فارنيزي وحرصه الشديد. إلا أن السبب الرئيس يعود الى إبنه النغل الذي كان يُلقب وقتئذ بـ(دوق كاسترو). هذا الصانع أخبر واحداً من مقربي (سنيور پيير لويجي) بأنه كان في خدمتي سنيناً عدة وهو بحكم طول خدمته مطّلع على كل أسراري وبإمكانه أن يقسم يميناً للسنيور پيير لويجي بأن ثروتي تزيد عن ثمانين ألف دوقية. ومعظم هذه الثروة هو أحجار كريمة وجواهر من ممتلكات الكنيسة، وإني قد سرقتها في قلعة سانت أنجلو أيام حصار روما. وحثّهم على إلقاء القبض عليّ بسرعة وسرية لئلا أعلم بنواياهم وأفلت من قبضتهم.

في صباح ذات يوم. وضعت معطفي على كتفي وخرجت من الدكان لأتمشى قليلاً. كنت قد إشتغلت حتى ساعة متأخرة من الليلة الفائتة ولم أتوقف إلا والساعة تشير الى الثالثة قبيل الفجر وقد أشغلني حليّ العروس التي نوهت بها. فإنتهزت فرصة قيام العمال بفتح الدكان وتنظيفه. فقادتني قدماي الى (يوليا سترادا) ولما بلغت منعطف كياڤيكا Chiavica. إعترضني (كرسپينو Chrispino) البارجللو وكلّ رجاله وقال:

- أنت سجين البابا.

قلت:

- كرسپينو إنك تعتقل شخصاً غير مطلوب إعتقاله.

فأجاب:

- كلاّ، فأنت بنڤنوتو الفنّان. وأنا أعرفك حقّ المعرفة. ومن واجبي أن آخذك مخفوراً الى قلعة سانت أنجلو، وهو المكان الذي يوخذ إليه النبلاء والفنانون أمثالك.

ثم ألقى أربعة من رجاله بأنفسهم عليّ محاولين إنتزاع الخنجر الصغير المشدود الى جنبي وبعض الخواتم في أصابعي. إلا أن (كرسپينو) ردّهم قائلاً:

- إرفعوا أيديكم عنه! أدوا واجبكم فحسب بألا تدعوه يهرب منكم.

ثم تقدم وسألني بأدب تسليم سلاحي. وفيما أنا أقوم بذلك تذكرت فجأة اني قتلت (پومپيو) في هذه البقعة بالذات. إقتادوني الى القلعة ووضعوني في غرفة مقفلة بوصفي سجيناً، وتقع فوق السور مباشرة. وكانت هذه أول مرة في حياتي البالغة سبعة وثلاثين سنة، أذوق فيها طعم السجن.[٢٢٦]

عندما فكر (پيير لويجي) بجسامة المبلغ الذي إتهمت بسرقته طلب من والده في الحال أن يمنحه

(٢٢٦) كان إعتقال چلليني في ١٦ تشرين الأول ١٥٣٨.

أياه عند إستحصاله. فوافق البابا بطيبة خاطر بل وعده أن يساعده في إستحصاله. ولهذا فبعد ان بقيت سجيناً ثمانية أيام ولأجل إنهاء القضية أرسلوا بطلبي للتحقيق. جيء بي الى واحدة من القاعات البابوية الكبرى في القلعة ذات المنظر المهيب. والمحققون هم حاكم روما، وهو من (پستوي) ويسمى (بنديتو كونڤرسيني Beneditto Conversini) رُسِّم فيما بعد أسقفاً لـ(ييزي Jesi) ومدير مالية الدولة وقد نسيت إسمه. و(بنديتوّ دا كالي B. da Cagli) قاضي محكمة الجزاء.

بدأ الثلاثة إستجوابي بلطف زائد، ثم راحو يهددون ويتوعدون بشكل شرس لأني قلت لهم:

- سادتي! إنكم ما إنفككتم خلال أكثر من نصف ساعة تسألوني عن حكاية الثور والديك وغيرها من الحكايات العجيبة. والمرء لايسعه إلا أن يصف كلامكم هذا بالثرثرة العشوائية. واقصد بالعشوائية إنكم تنطقون بكلام لا معنى له. واقصد بالعشوائية إنكم لاتقولون شيئاً أبداً. ولذلك أرجو منكم ان تخبروني بحقيقة مطلبكم ودعوني اسمع كلاماً معقولاً بدلاً من الثرثرة العجيبة.

عندها لم يستطع حاكم روما الپستويي ان يخفي طبعه العنيف فصرخ:

- انك شديد الثقة بنفسك. في الواقع شديد الغرور والإدعاء ولأجعلنك تزحف كالجرو عندما تسمع ما سأقول. وهو ليس بالثرثرة ولا بالعشوائية كما وصفت، وإنما سلسلة من الحجج والبراهين سترغمك على محاولة تفسير مسلكك.

وبدأ كالاتي:

"إننا نعلم بصورة مؤكدة بأنك كنت في روما عندما حوصرت هذه المدينة السيئة الحظ. وكنت آنذاك في قلعة سانت أنجلو بوظيفة مدفعيّ، ولما كنت صائغاً وجواهرياً فإن البابا كليمنت بناء على معرفته السابقة بك ولما لم يكن هناك صائغ غيرك، وضع ثقته بك وطلب منك ان تقوم بقلع الجواهر التي يحتويها تاجاه الباباويان وحلله الكهنوتية وخواتمه. ثم طلب منك بناء على ثقته بك أن تخيط هذه الجواهر في حواشيّ وبطانات ثيابه التي يرتديها هذه الجواهر. وفي أثناء قيامك بهذا العمل إحتفظت لنفسك بقسم منها في غفلة من قداسته، مما تبلغ قيمته ثمانين ألف كراون. وإنك أفشيت سرّك هذا لأحد عمالك متباهياً وهو الذي أخبرنا بالحادث. ونحن الآن نأمرك بكل صراحة بتسليم الجواهر أو قيمتها وسنخلي سبيلك."

لما سمعت هذا لم أجدني إلا وأنا أنفجر مقهقهاً. ثم وبعد ان تمالكت نفسي، قلت:

- اني اشكر الله لأنه وقد شاءت إرادته أن أُسجن لأول مرة، لم يشأ أن أُخذ بجريرة تافهة مما يقع فيه الشباب عادة نتيجة نزقهم وطيشهم. ولو كان ما زعمتموه صحيحاً. فلا جناح عليّ ولايمكن أن توقع بي عقوبة دينية لأجله، لأن القانون في ذلك الظرف كان قد أوقف العمل به ولذلك بإمكاني التخلص من المسؤولية بتقديم هذا الدفع وكموظف رأي من واجبه حراسة هذا الكنز للكنيسة المقدسة الرسولية حتى تسنح لي الفرصة لإعادته إلى پاپا صالح - أو في الواقع الى الرجل الذي طلبه مني وهو أنت، في حالة ما إذا كانت القصة صحيحة.

ولم يدعني أكمل دفاعي فقد قاطعني الحاكم البستويي المخرف بغضب:
- ضعها في أي قالب كلامي تريده يا بنڤنوتو، فما نسعى إليه هو إستعادة مالنا. فعجّل به وإلا ستلقى منّا أكثر من الكلمات.
وتهيأ للنهوض والإنصراف، فقلت:
- اني مازلت تحت الإستجواب ايها السادة. ولذلك أرجو ان تفرغوا منه، واذهبوا بعدها حيث شئتم.
فعاودا الى مقاعدهم حالاً. إلا أنهم كانوا يتميزون غيظاً مني. واظهروا ما يفيد بأنهم سمعوا مني الكفاية وانهم مقتنعون تقريباً بحصولهم على كل مايريدون معرفته. إلا انني بدأت الكلام بقولي:
- ايها السادة ينبغي لكم ان تعلموا بأني عشت في روما زهاء عشرين سنة ولم ادخل سجناً لا فيها ولا في مدينة اخرى...
وهنا صاح الكلب الشرطي المسمّى حاكماً:
- لكنك إرتكبت بعض جرائم قتل...
أجبت:
- أنت تقول هذا لا أنا. وعلى اية حال لو حاول احدهم قتلك، فلابدّ وأن تدافع عن نفسك مع إنك كاهن. فإن قتلته فالقانون الإلهي سيعذرك ويقدر ظروفك. ولذا فإن شئتم أن يطلع البابا على نتيجة تحقيقكم وإن سمحتم لي بحرية القول فدعوني أواصل دفاعي. اعيد القول إني عشت في هذه المدينة الجليلة روما زهاء عشرين سنة. وفي خلال هذه الحقبة من الزمن انجزت اعمالاً فنية رائعة. ولما كنت أدري بأن هذه المدينة هي كرسي السيد المسيح، فقد كنت دائماً أوكد لنفسي انه اذا ما اراد أمير دنيويّ ان يعتدي عليّ ظلماً فملجأي سيكون العرش المقدس وحاميّ هو نائب السيد المسيح الذي سيدافع عني. اما الآن فعونك أيتها السماء! الى أين أذهب ولمن أشكو؟ أي أمير سيدفع عني غائلة هذه التهمة الغادرة؟ أما كان عليكم ان تكشفوا عن الموضع الذي خبأت فيه هذه الآلاف الثمانين من الدوقيات قبل القبض عليّ؟ أما كان يترتب عليكم أن تقوموا بفحص سجلات الجواهر التي تحرص دائرة التوقيعات البابوية على الإحتفاظ بها أشد الحرص طوال خمسمائة سنة؟ فإذا وجدتم بعد هذا شيئاً مفقوداً فعليكم عند ذلك أن تضعوا أيديكم على دفاتري وسجلات حساباتي ولاتكتفوا بشخصي. استطيع ان أوكد لكم أن السجلات التي تتضمن قائمة بكلّ جواهر البابا وحليته الكهنوتية ليس فيها شائبة. ولن تجدوا أياً مما يعود الى البابا كلينمت مفقوداً إلا إذا دونت ملاحظة دقيقة عن ذلك. على ان هناك أمراً واحداً. فعندما كان هذا البابا التاعس كليمنت يفاوض الصلح مع هؤلاء اللصوص الإمبراطوريين الذين نهبوا روما وبصقوا على الكنيسة. أقبل شخص يدعى (چيزاري اسكاتينارو Cesaro Iscatinaro)[٢٢٧] إن لم تخنّي الذاكرة، ليقوم بدور المفاوض وعقد المعاهدة. وبعد أن إنتهى أو كاد من مناقشاته مع البابا المُساءة معاملته، أراد قداسته ان

(٢٢٧) لابد وأن يكون جيوڤاني بارتولوميو گاثينارا. وهو الشخص الذي بحث معه البابا كليمنت السابع الشروط الممهدة للصلح. وإنتهت بالمعاهدة التي أدت الى إستسلامه وبقائه رهينة في قلعة سانت انجلو على نحو ما تقدم.

يظهر بعض عطف تجاهه فما كان منه إلا أن أسقط من إصبعه خاتماً ألماسياً قيمته نحو أربعة آلاف كراون. فإنحنى (إسكاتينارا) وإلتقطه وأنا واقف. فرجاه الپاپا ان يقبله هديةً منه اكراماً لخاطره. فإذا كانت هذه الألماسة ناقصة فها إني أخبرتكم بمصيرها على اني اكاد اكون واثقاً بأنها مؤشرة هي الأخرى في السجلات. وعلى هذا يمكنكم الانصراف خجلين من الاسلوب الغاشم الذي اتبعتموه في حملتكم على رجل في وزني. رجل أدى أجلّ الخدمات للعرش الپاپوي وبوسعي القول: لو لم أكن ذلك الرجل الذي ترون. لسهل على جنود الإمبراطور الذين دخلوا الحوزة Borgo إقتحام قلعة سانت انجلو دون ان يلاقوا مقاومة. فكنت انا الذي اسرعت الى المدافع التي تركها المدفعيون وجنود الحامية. (ولم انل عن ذلك اية مكافأة) مستنهضاً همة أحد رفاقي النحّات (رافاييللو دا مونتيللوپو) وكان قد ترك هو الآخر موقعه واخفى نفسه في زاوية حيث وجدته مرتعباً منهارا. فبثثت فيه الشجاعة وبتعاوننا وحدنا قتلنا الكثير من العدو وأجبرناه على التحول الى طريق آخر.

وأنا الذي اذقت (إسكاتينارو) طعم ناري لأنه تهجم على الپاپا وكلمه بلهجة خلت من الإحترام كالملاحدة واللوثريين. ولما حصل هذا أمر الپاپا كليمنت السابع بتفتيش الحصن للعثور على مطلق النار وشنقه. انا الذي جرحت أمير أورانج في رأسه في أسفل خنادق القلعة. الى جانب هذا كم صنعت للكنيسة المقدسة من الحلي الذهبية والفضية والتحف المكفتة بالجواهر، كم من الميداليات الجميلة والنقود الشهيرة! حسن! اذهبوا واخبروا الپاپا بكلّ ماقلته. وزيدوا عليه هذا: اما بخصوص جواهره فكلها موجودة عنده، واني لم أنل من الكنيسة غير الجراح والرجم بالحجارة اثناء حصار روما. وقولوا له أيضاً اني مابنيت أي أمل على أي شيءً خلا ماوعدني به الپاپا پولس من مكافأة صغيرة وأخال كلامي الآن واضحاً تماماً بالنسبة الى قداسته وبالنسبة اليكم انتم كهنته".

كانوا ينتظرون نهاية اقوالي وهم مصعوقون بما سمعوا. ثم تبادلوا النظرات وخرجوا مشدوهين. ذهب ثلاثتهم جميعاً معاً الى الپاپا لينقلوا اليه اقوالي. فشعر بالخجل من نفسه وامر بأن تُفحص السجلات فحصاً دقيقاً. فتبين للجميع انها كاملة لم يفقد منها شيء. إلا انهم ابقوني حبيساً في القلعة من دون ان يقولوا لي كلمة واحدة. حتى (السنيور پيير لويجي) فقد اعترف بأنه إرتكب خطأً فاحشاً. وبعدها بذلت كل الجهود الممكنة لإيرادي حتفي.[٢٢٨]

بينما كانت هذه الأحداث تمرّ بي ابلغ الملك فرنسوا بتفاصيل الإجراءات المتعسفة التي إتخذها الپاپا پولس بحقي والظلم الذي آتاه بإبقائي سجيناً. وكان قد أوفد أحد نبلائه سفيراً الى روما وهو السيد (دي مونتلوك de Montluc)[٢٢٩]. فبعث يأمره بأن يتقدم بطلب إطلاق سراحي بإعتباري أحد مستخدمي جلالته. كان الپاپا من الدهاة إلا أنه تصرف بخصوص قضيتي تصرف الحمقى السُذّج. إذ

(٢٢٨) نشر (پرتولوتيّ) نص المحظر الرسمي للتحقيق. ويستفاد منه ان چلليني لم يكن بمثل الصلابة وذلاقة اللسان اللتين وصف بهما نفسه هنا.

(٢٢٩) وفيما بعد اسقف ڤالنسي Vaence. كان على رأس الوفد الذي أرسل بمناسبة إنتخاب الملك هنري دانجو لعرش بولونيا. وأخوه (بلينز) مارشال مشهور.

كان جوابه لسفير الملك قوله: يجب أن لايهتم جلالته بشخص مثلي يستفز الناس ويدفعهم الى القتال بالسلاح دائماً. ولهذا فهو ينصح جلالته بأن يسقطني من حسابه لأنه إعتقلني لجرائم قتل وغيرها من الجرائم الكبرى التي إرتكبتها.

فردّ الملك على هذا بقوله: إن العدل يسود مملكته والقانون له الكلمة العليا. وهو لايتردد في معاقبة الخارجين عليه مثلما لايتردد في إكرام المشاهير والعباقرة والموهوبين ، وأضاف يقول: وبما ان قداسته غير مهتم بخدمات بنڤنوتو وإنه كان قد تركه يغادر روما فلما وجده (أي الملك) في مملكته سرّه أن يضمه اليه ويفيد من خدماته. ولذلك فهو يطلب تسليمي له بوصفي واحداً من اتباعه.

سبب لي هذا قدراً كبيراً من الأذى وكثيراً من المشاكل. مع كل مايعكسه من الحظوة العظيمة التي يتمناها كل أمريء من طبقتي. لقد أُثير حنق الپاپا بهذا وكان يخشى في حالة إخلاء سبيلي ان انشر على الملأ سوء فعله وظلمه الصارخ فأفضحه فضحاً. لذلك صار يفكر في طريقة للقضاء على حياتي دون ان يلحق بسمعته ضرر.

كان محافظ قلعة سانت انجلو مواطناً فلورنسياً يدعى (جيوجيو) وهو حائز لقب فارس ومن أسرة (أوگوليني Ugolini). بذل لي هذا الإنسان الكريم كل مافي طوقه من التسهيلات وأحسن معاملتي بشكل يجلُّ عن لوصف. لقد تركني حراً أتنقل في أرجاء الحصن على هواي بعد أن أعطيته كلمة شرف بألاّ أحاول الفرار. ولم يكن يجهل مقدار الظلم الذي حاق بي. رغبت منه أن يدعني اخرج من القلعة وأتدبّر شؤوني وآعمالي بعد إعطائي ضمانة. فأبى ذلك لأن الپاپا يأخذ قضيتي مأخذاً جدياً. وقال إنه يثق بكلمتي ثقة تامة لأن الناس أجمعوا على اني إنسان شريف. فأعطيته كلمة الشرف، وسمح لي بمواصلة عملي داخل القلعة بشكل محدود. كنت أتوقع ان يزول غضب الپاپا بعد تأكده من براءتي فيطلق سراحي إرضاءً للملك، لذلك أبقيت دكاني مفتوحاً. وكان مساعدي (اسكانيو) يأتيني ببعض الأشغال الى القلعة إلا أني لم أكن في حالة نفسية تؤهلني للعمل الجدي المتواصل. ففكرة بقائي سجيناً دون وجه حق كانت تذيقني مرّ العذاب. مع هذا بثثت في نفسي الشجاعة. وشددت من عزمي وجعلت من الضرورة فضيلة.

وثّقت عرى الصداقة بالسجّانين وبعدد كبير من جنود القلعة، وكان الپاپا يتناول عشاءه أحياناً في القلعة. وعندئذ ينسحب السجّانون من كل مكان وتُفتح الأبواب كلها فتبدو القلعة وكأنها قصر كسائر القصور. ولهذا السبب كان المعتقلون يلازمون غرفهم طوال فترة وجوده وأبوابهم مقفلة عليهم. بإستثنائي فإني أبقى حراً أتجول في أنحاء القلعة.

كثيراً ما نصحني الجنود بالفرار. بل تعهد بعضهم بمساعدتي لعلمهم بمدى الظلم الذي لحقني. فأجيبهم بأني أعطيت كلمة شرف لمحافظ القلعة، ذلك الرجل الشهم الذي أقدم على الكثير في مجال مساعدتي. وكان بينهم جندي مقدام ذكي جداً. قال لي:

– عزيزي بنڤنوتو. ألا تدري إن أىّ سجين لايمكن ان تؤخذ منه كلمة شرف. وهو غير مرغم على المحافظة عليها أو على أي شيء آخر. إفعل ما قلته لك: إهرب من هذا الپاپا اللئيم وإبنه النغل

اللذين عقدا النية على إزهاق روحك.

إلا أني صممت على تعريض نفسي لخطر الموت ولا أخون عهدي مع المحافظ الكريم. فتحملت آلامي مع رفيقٍ لسوء الحظ وهو راهب من أسرة (پاللاڤيچيني Pallavicini)[٢٣٠]. واعظٌ لايُشقُّ له غبار قُبض عليه بوصفه لوثرياً. كان من ناحية العشرة نعم الصديق الرفيق. أما من ناحية الدين فهو شرّ وغد من الرهبان في الدنيا. لقد مارس كل رذيلة وقبيحة. وكنت معجباً بملكاته ومواهبه إلا أني كرهت رذائله الحيوانية ولطالما أنّبته عليها. لم يكن يكُفّ قط عن تذكيري بأني غير ملزم بكلمة الشرف التي قطعتها للمحافظ بإعتباري سجيناً. وكان جوابي على هذا أنه يصدق على راهب ولكن لايصدق على رجل. فكلٌّ من كان رجلاً وليس راهباً يتحتم عليه أن يحافظ على كلمته مهما كانت الظروف وأينما وجد نفسه. وبما أني رجل لا راهب، فلن أرجع عن كلمة الشرف البسيطة التي أعطيتها. وبعد أن أدرك أنه لن ينجح في إفسادي بمنطقه القوي وسفسطته الماكرة التي كان يبسطها بحذقٍ ومهارة، فكّر في إغرائي بطريقة أخرى. وإنتظر مرور بضعة أيام كان خلالها يقرأ لي مواعظ لـ(جيرولامو ساڤونارولا): إلا أن تعليقاته البليغة عليها كانت أجمل وأجلَّ من المواعظ نفسها. فسحرتني وأسرتني بحيث أبديت له إستعدادي لتلبية أي طلب له إلا إخلالي بكلمة الشرف. وعندما وجد إنجذابي إليه بهذه الشدة فكّر في خطة أخرى. وبأسلوب إستدراجي مبطن. سألني بماذا سأتوسل لفتح أبواب زنزانتي لو أقفلوها عليَّ؟ في حالة ما لو صحّ عزمي على الهروب؟

فطاب لي أن أثبت لهذا الراهب اللامع الذكاء بأني حادّ الذهن واسع الحيلة أيضاً. فأجبته إني بالتأكيد لن أجد أيّ صعوبة في فتح أشدّ الأقفال تعقيداً. ولاسيما أقفال السجن فهي أسهل من قطعة جبن طريّة.

فتظاهر الراهب بالشكّ في إدعائي، ليدفعني الى إفشاء السرّ وقال بلهجة ساخرة:

– إن أولئك الذين عُرفوا بالذكاء كثيراً ما أطلقوا مثل هذه الإدعاءات. إلا أنهم يفقدون سمعتهم هذه ولايستعيدونها البتّة عندما يُطلب منهم إثبات مدعياتهم عملياً.

وأضاف يقول إن ماسمعه منيّ لايمكن تصديقه بحيث لو وضعته موضع التطبيق لخسرت ما أتمتع به من صيتٍ. لقد وضعني هذا الراهب على المحكّ فما وسعني إلا الإجابة بقولي: إني تعودت الوعد بأقل مايمكن إنجازه وأفعالي هي أكثر بكثير من أقوالي. وإنّ ما إدعيت حول المفاتيح هو أسهل شيء في الدنيا عندي ولن أحتاج الى أكثر من كلمات قليلة لأجعله يدرك صحة قولي. ثم إني قمت دون تفكير وتأملٍ، بإثبات زعمي بإراءته عملياً كيفية ذلك. وتظاهر بأنه لايهتم مطلقاً إلا أنه إستوعب الموضوع بأسرع مايمكن وبسعة حيلة لاتُدانى.

وذكرت سابقاً أن محافظ القلعة الطيب ترك لي حرية التجوال في أرجاء الحصن ولم يكن يقفل عليّ بابي كالآخرين. كذلك سمح لي بالإشتغال بما أريد سواء بالفضة أو الذهب أو الشمع. وكنت في الواقع

(٢٣٠) عُرف هذا الراهب بأنّه أقوى الوعّاظ عارضةً ومن أشهرهم. أعتقل في ١٥٣٨ لمدة سبعة أشهر. ولم يكن هذا إعتقاله الأخير.